

فائز المأساة الأندلسية :

الصراع الأخير

بين الموريسكيين وإسبانيا

للاستاذ محمد عبد الله عنان

- ١ -

حدث أثناء المفاوضات التي جرت في مونثرو بين مصر والدول لالغاء الامتيازات الأجنبية أن تقدم الوفد الإسباني بطلب يختص باليهود والسفرديم، المقيمين بمصر، هو أن يعاملوا كالأغايا الأسبانيين وأن يمنحوا مزية التقاضي أمام المحاكم المختلطة أثناء فترة الانتقال، وشرح أحد أعضاء الوفد بواعث هذا الطلب لممثلي الصحف، فقال: إن هؤلاء اليهود والسفرديم، هم من ذرية اليهود الأسبانيين الذين طاردتهم مجالس التحقيق، محاكم التفتيش، في القرن السادس عشر وشردهم عن وطنهم في مختلف البلاد، وأن إسبانيا الجمهورية التي تحررت من نزعات التحامل والتعصب تريد أن تقدم ترصية لسلالة هذه الطائفة التي نكبت في عصور الظلم والتعصب والطغيان.

وهذه الملاحظة تثير الشجن. ذلك أن إسبانيا النصرانية تعترف بعد أربعة قرون بزلتها التاريخية الكبرى، وتعلن مع التاريخ ذكرى ديوان التحقيق. بيد أن هذا الاعتراف ليس إلا لمحة بسيطة من الحقيقة المروعة؛ ذلك أن إسبانيا النصرانية ما كادت تظفر بتحقيق سياستها الوطنية القديمة في سحق إسبانيا المسلمة والاستيلاء على تراثها كله والظفر بغرناطة آخر معاقلها، حتى وضعت برنامجها الشائن لمحو تراث الأندلس، وسحق الإسلام وكل ذكرياته وآثاره، وإبادة هذه البقية الباقية من سلالة المسلمين والعرب الذين لبثوا سادة في الجزيرة زهاء ثمانية قرون؛ وكان اليهود الذين عاشوا وازدهروا في ظل الدولة الإسلامية، كالمسلمين ضحايا هذه السياسة البربرية؛ وكانت

محاكم التحقيق تنشط لمطاردة الضحايا، وكانت محارقها تسطع في مختلف القواعد الأندلسية القديمة حتى قبل سقوط غرناطة؛ وكان سقوط غرناطة في فاتحة سنة ١٤٩٢م نذير المأساة المروعة التي لم تستطع إسبانيا النصرانية في حمى الظفر وغلوائه أن تقدر عواقبها المخزية؛ وكانت المسلمون المغلوبون قد أخذوا على الظافرين قبل التسليم كل ما يستطيع أن يأخذه الضعيف على القوى من الجهود النظرية، لتأمين النفس والمال والعرض، والدين والتراث القومي؛ ولكن هذه الجهود التي لا سند لها إلا إرادة الظافر، لم تكن شيئاً مذكوراً في نظر إسبانيا النصرانية؛ فلم تمض سوى أعوام قلائل، حتى كشفت إسبانيا النصرانية عن سياستها ونياتها الحقيقية فسحقت الجهود المقطوعة وأرغمت المسلمين على النصر، ولم تدخر وسيلة من الوسائل البربرية، من سجن وحرق وتشريد وتعذيب إلا استعملتها لتحقيق هذه الغاية، وسطعت محارق ديوان التحقيق في غرناطة كما سطعت من قبل في غيرها من قواعد الأندلس لتلتهم المخالفين والمارقين، وغدا أبناء قريش ومضر نصارى يشهدون القداس في الكنائس ويتحدثون القشتالية، واختفت آثار الإسلام والعربية بسرعة، واستحال الشعب الأندلسي إلى مجتمع جديد هو مجتمع الموريسكيين أو العرب المنتصرين

ولقد كان استشهاد الموريسكيين من أروع مآسي التاريخ، وكان هذا الشعب المبيض الذي أدخل قسراً في حظيرة النصرانية، والذي أنكرته مع ذلك إسبانيا سيده الجديدة وأنكرته الكنيسة التي عملت على تنصيره، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة، وأن يتقبل مصيره المنكود بإبام وجلد؛ ولكن إسبانيا النصرانية كانت ترى في هذه البقية الباقية من الشعب الأندلسي المجيد عدوها القديم الخالد، وتتصور أن هذا المجتمع المبيض الأعزل، الذي أبحكت أغلالها في عنقه مصدر خطر دائم على سلامها وطمانيتها، وتشتد في مطاردته وإرهابه بمختلف الفروض والقوانين والمغارم، وتمعن في انتهاك عواطفه وحرماته وفي تعذيبه وتشريده، وتنكر عليه أبسط الحقوق الإنسانية؛ وكانت محاكم التحقيق تحمل هذه الرسالة الدموية المخزية، وتعمل على تنفيذها بوحشية لم يسمع بها؛ واستطالت هذه الوندالية منذ

سقوط غرناطة أكثر من قرن . بيد أن الموريسكيين يحملهم اليأس العميق ، وغريزة الدفاع عن النفس ولحمة باقية من عزم النضال القديم ، لم يخلدوا إلى هذا الاستشهاد المؤسى ، دون تدمير ، ودون انتفاض ، فقد ثاروا غير مرة على الطغاة والجلادين ، وحاولوا مقاومة هذه السياسة الوندالية والخروج على قروضاها ؛ ولكن يد الطفيلان القوية مزقتهم وسحقتهن بلا رافة ، وتركتهن أشلاء دامية

وكانت أعظم ثورة قام بها الموريسكيون في وجه اسبانيا النصرانية سنة ١٥٦٩ م . أعنى بعد سقوط غرناطة بثمانية وسبعين عاماً ؛ وكان التصرف قد عم الموريسكيين يومئذ وغاضت منهم كل مظاهر الاسلام ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد كان لا يزال يحثهم في قرارة هذه النفوس الالية الكليمة ؛ ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية في اكتساب شيء من ولائها المنصوب ، وكان الموريسكيون يحتشدون في جماعات كبيرة وصغيرة في بسائط غرناطة وفي منطقة البشرات الجبلية تتوسطها الحاميات والكنائس ، لنسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمايرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية وثيقة بشعور المغرب

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القومية لازالت تربط هذا الشعب الذي زادته المحنة والخطوب اتحاداً وتعلقاً بتراته القوي والروحي ؛ وكانت الكنيسة تحيط بهذا الشعب العاق الذي لم تنجح تعاليمها في النفاذ إلى أعماق نفسه بكثير من البغضاء والحقد ؛ فلما تولى فيليب الثاني الملك ألفت فرصتها في اذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب . وكان هذا الملك المتعصب حبراً في أعماق نفسه ، يخضع لوحى الاحبار والكنيسة ، ففي سنة ١٥٦٣ ظهرت بوادى السياسة الجديدة إذ صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين إلا بترخيص من الحاكم العام ؛ فأثار صدوره سخط الموريسكيين ؛ بيد أنه كان مقدمة لقانون بربرى جديد أعلن في غرناطة في يناير سنة ١٥٦٧ وهو الشهر الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحفل به كل عام وكان القانون الجديد يرمى إلى القضاء على آخر

المظاهر والتقاليد التى تربط الموريسكيين بماضيهم وتراثهم القومى ، فحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وأن لا يستعملوا سوى القشتالية في التخاطب والتعامل وذلك في ظرف ثلاثة أشهر من صدور القانون ، وألا يتخذوا أسماء عربية ، أو يرتدوا الثياب العربية ، وحظر التحجب على النساء ، وأن يارتداء الثياب الأوربية المكشوفة وذلك في ظرف عام ، وأن تبقى بيوتهم مفتوحة أثناء حفلات الزواج وغيرها ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والمراسم المحرمة ، وألا ينشدوا الاغاني العربية أو يزاولوا الرقص العربى ، وفرضت للمخالفين عقوبات فادحة تختلف من السجن إلى النفي والاعدام

أعلن هذا القانون في غرناطة في ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة في يناير سنة ١٥٦٧ ؛ ونستطيع أن نتصور وقعه لدى الموريسكيين فقد فاضت قلوبهم سخطاً وأسى وبأساً ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لالغائه أو على الأقل لتخفيف وطأته ، فاجتمع أعيانهم وقرروا التظلم للعرش ، وحمل رسالتهم إلى فيليب الثاني وإلى وزيره الطاغية اسبنوسا ، سيد إسباني نيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وقد كان يعطف على هذا الشعب المنكود ويرى خطر السياسة التى اتبعت لابادته ؛ ولكن وساطة ذهب عثا وحملت سياسه العنف والتعصب كل شيء في طريقها ، ونفذت الأحكام الجديدة في المواعيد التى حددت لها ، وأحيط تنفيذها بمتهى الصرامة والشدة .

عندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، قهأمسوا على المقاومة والثورة والدود عن أنفسهم أزاء هذا العسف المظنى أو الموت قبل أن تنطق في قلوبهم وضمايرهم آخر جذوة من الكرامة والعزة وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز .

— ٢ —

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية ؛ ومن الأسف أننا لم نلتق عن هذا المرحلة المؤسية من تاريخ اسبانيا المسلمة شيئاً من الروايات العربية ، وكل

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٥ -

الرياسة المصرية - قراءة الجوانب عند الخامسة

بقى علينا قبل أن نغادر فصل الألوهية عند قدماء المصريين أن نبين حقيقة عليية ظلت مستورة وقناطويلا يكتنفها الغموض ويحيطها الإبهام من كل جانب، وظل العلماء والباحثون يتخبطون في حل مشكلتها مدى بعيداً. تلك المشكلة هي عبادة المصريين للحيوانات التي طالما كانت موضع الحيرة من المستعصرين الذين يدينون بمدينة مصر الفاتكة ورقى عقليتها الممتاز الذي لا يتفق مع عبادة الحيوانات تحت لواء منطق مستقيم. وما نحن أولاء نبين رأى الخاصة المتفلسفين في عبادة الحيوان بعد أن أبنا في الكلمات السابقة منشأ عقائد العامة الذين كانوا يعبدون تلك الحيوانات دون أن ينشغلوا بأسباب هذه العبادة. وقد ذكرنا لك فروض العلماء التي تمحلوها في هذا الشأن: أما الخواص من المصريين فمبررات عبادتهم للحيوان تلخص فيما يلي:

كان المصريون يعتقدون أن الروح تعود بعد الموت فقطن في المومياء المخنطة وفي التمثال الحجري على ما سنين ذلك في بابيه، ثم تدرجوا إلى أن للإنسان عدة شخصيات بعضها مادية وبعضها رוחي، وأن كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها في مأوى خاص. وإذا كان هذا شأن الإنسان فأحر بالآله - وهو الأعظم روحانية - أن يكون له عدة شخصيات تحمل كل واحدة منها في مأوى، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مأوى شخصيات الآله لا يصح أن تكون مئة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال، وإنما يجب أن تكون مستحوزة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان، فأخذوا يحلون الآله تارة في ثور وأخرى في تمساح،

ما انتهى إلينا منها عن المأساة أثر صغير يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر»، كتبه فيما يظهر مسلم أو موريسكي من أشرف غرناطة وذلك سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة. وفيه يصف حوادث سقوطها وما تلا ذلك من ارغام المسلمين على التنصر، ومن مطاردتهم وإرهابهم وتعذيبهم، ويحمل لنا مأساة التنصر في هذه الكلمات المؤثرة.

ثم بعد ذلك دعاهم (أى ملك قشتالة) إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرهاً، وصارت الاندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعدورين لم يقدروا على الهجرة والفرار، وينظرون قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصليبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرّون على منعهم ولا على نهيمهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب، فيا لها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وظامة ما أكبرها، (١)

يبد أن هذه الرواية العربية الوحيدة تقف في تتبع حوادث المأساة عند هذا الحد؛ وإذن فليس لدينا لتتبع حوادث هذا الصراع الأخير بين الموريسكيين وبين أسبانيا النصرانية سوى المصادر القشتالية؛ وإذا كانت هذه المصادر النصرانية، وتأثر في كثير من المواطن بالعوامل الدينية والقومية، فإنها مع ذلك تعرض هذه الحوادث المؤسفة في أسلوب مؤثر، ولا تضن في بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها على ذلك الشعب الباسل الذي لبث يناضل حتى الرمق الأخير عن كرامته وعن تراثه الروحي والقوي.

(البحث بقية)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله غلاب

(١) أخبار العصر (طبعة المشرق ميل) ص ٥٥، ٥٥.